



## من الرقص والتمتع إلى إدارة شؤون الدولة العثمانية

# جوارى ترَبَّعن على كرسي العرش العثماني

في عصر العثمانيين كان ممكناً لأي جارية مجهولة النسب والديانة أن تجد نفسها في لحظة على كرسي العرش، مُتَحَكِّمة في حياة ملايين المسلمين، هذا ما تقوله المصادر التاريخية التي وصفت كيفية وصول الدولة العثمانية نفسها إلى عرش آل عثمان، وكيف أصبح أمهات زوجات سلاطين الترك.

لم يكن الطريق صعباً، يكفي أن تُجيد أي جارية فن إيقاع السلطان في غرامها لتُنجب منه، وبحسب البروتوكولات العثمانية تُصبح زوجة ثم أمًا للسلطان المقبل، وهي مكانة تمنح صاحبها سيادة وحظوة متوقعة على عرش آل عثمان، ومن ثَمَّ التحكم في مصير ملايين المسلمين الواقفين في البلاد التي احتلتها الدولة العثمانية.

أمام ضعف سلاطين الترك أيضًا تُصبح المهمة سهلة، فأغلب بني عثمان -بحسب المصادر التاريخية- لم يلهنوا وراء شيء قدر النساء، ولم يفعلوا في حياتهم أكثر من الاستلقاء على الأسترّة حتى أن بعض السلاطين لم يغادروا قصورهم قط، إضافةً إلى الإسراف في شراء الجوارى من شتى أنحاء العالم وتكدسهن في الحرملك حيث المكان المخصص لهن في قصور الحكم، وهو أمر حذر منه كثير من قادة الدولة العثمانية نفسها إذ إن كثيرون من الجوارى تظاهرن باعتناق الإسلام وحب السلطان وهن في الحقيقة لسن سوى عيون لِدُولهن الأصلية المعادية للدولة العثمانية وللمسلمين في آن واحد.

لكن سلاطين العثمانيين لم يلتفتوا إلى تلك التحذيرات، إذ لم يكتفوا بالبرعية في الحقيقة، فالهمم عندهم تلبية رغباتهم وشهواتهم، فتوسعوا في شراء الجوارى وورّجوا لأسواق النخاسة، وكانت النتيجة أن الحرملك كان به عام (1475) ما يتجاوز 400 جارية ينتمين لجنسيات مختلفة، الرابط الوحيد أن جميعهن يتبعن السلطان.

وبحسب المنظومة التي وضعها بنو عثمان للجوارى ودرجات الترقى داخل الحرملك، كان أسرع الطرق أن يعشق السلطان جارية وتُنجب له ابناً يكون ولياً للعهد، وهو ما حدث كثيرًا، لكن لم يقف الأمر عند هذا الحد إذ إن بعض الجوارى حين يصبح زوجات بسبب ضعف أزواجهن من سلاطين الترك، يتدخلن في شؤون الحكم، وبعضهن كن يتحكمن الدولة العثمانية في الحقيقة.

### ” السلطانة عائشة والدة سليم الأول أول جارية تدخلت في شؤون الحكم.

ولعل البعض يظن أن هذا جاء في عصر تدهور الدولة العثمانية، لكن الحقيقة أن ذلك بدأ ميكزًا، إذ تشير المصادر التاريخية إلى أن ظاهرة حكم "الحریم" للدولة العثمانية بدأ مع السلطان سليم الأول (1512-1520) ميلادي، فكما كان هو ديكتاتورًا وسفاحًا، كانت والدته السلطانة عائشة هي حاكمة قصر الحكم الأولى باعتبارها والدة السلطان، وهي أول من تولت هذا المنصب، ولعبت أدوارًا مهمة في عهد حكم ابنها حتى وفاتها، ولعل أبرز ما تميزت به السلطانة عائشة أنها أخدمت صراع زوجات سليم الأول، وهو صراع كان يمكن أن يؤدي إلى اغتيال السلطان نفسه من أجل أن تضمن كل زوجة أن يكون ابنها وليًا للعهد، وهو أمر شائع منذ تأسيس الدولة العثمانية، وكم من أشقاء قُتلوا دون ذنب بأيدي أشقائهم أو أبنائهم.

وأما سليمان القانوني الذي حكم في (1520-1566) ميلادي، أشيع عنه أنه أكثر سلاطين الترك صرامة وقوة، إذ تكشف الروايات التاريخية أن معظم القرارات التي اتخذها كانت وراءها روكسلانة، وهي جارية ذات أصول أوكرانية-أرمنية أسمها الأصلي "إلكسندرا إليوفيسكا"، وتنتمي لأب مسيحي، أسيرت في سن الرابعة عشر، وبيعت في سوق النخاسة للتجار العثمانيين حتى وصلت إلى قصر الحكم، وهناك استطاعت أن تُشَلِّب عقل سليمان القانوني الذي هام بها حبًا، وحَزَّ أمام جمالها فترك حملات جيشه العسكرية وجلس يكتب بجوارها قصائد الشعر.

### ” وقع سليمان القانوني في غرام الأوروبية روكسلانة فخرّضته على قتل ابنه.

وتتمكنت روكسلانة من إنجاب أبناء سليمان القانوني (عبد الله، سليم، بايزيد) لتصبح زوجة السلطان والدة السلطان المقبل، لكن لم يقتصر دور روكسلانة عند هذا الحد، فلتأمين وصول أبنائها للعرش بدأت في لعب الأدوار السياسية لتكون السيدة الأولى في هذا المضمار، ولم تكن الأدوار شريفة بل اعتمدت على القتل والدسائس كعادة آل عثمان، ونجحت روكسلانة في تحريض سليمان القانوني على قتل صدره الأعظم إبراهيم باشا الذي كان معترضًا على تدخل زوجة السلطان في كل شيء.

كما نجحت روكسلانة في تحريض سليمان القانوني حتى أقدم على تصفية ابنه مصطفى من زوجته "ماهي دوران جلهار سلطان"، وهو ما أدى إلى وصف المؤرخ العثماني منجم باشي في كتابه "جامع الدول" إلى القول بأن روكسلانة كانت منشأ مكر النساء في قصور الحكم، فتمكنت من إزالة مصطفى بن سليمان القانوني في عام 1553 ميلادي، وقد أحدثت تلك الواقعة حزنًا عميقًا بين جنود الإنكشارية، ولم يسلم السلطان سليمان القانوني من الانتقاد.

### ” يطلق المؤرخون على فترة سليم الثاني عصر سلطنة الحريم بسبب الجارية نوربانو.

توضح المصادر التاريخية أن ما فعلته روكسلانة لم يكن فريدًا من نوعه، بل يمكن القول بأنها بدأت عقيدة سياسية صارت لدى سلاطين الترك بعد ذلك، ولم يكن سليم الثاني (1566-1574) ميلادي، ابن سليمان القانوني بأفضل من أبيه، فعلى الفور بعدما تولى سليم الثاني الحكم وقع في غرام نوربانو، وهي جارية من أصول بندقية ولدت في جزيرة باروس بالبحر الأبيض المتوسط، واسمها الحقيقي "سيسيليا"، دخلت قصور بني عثمان وهي في الحادية عشر من عمرها ووقع في غرامها الأمير سليم الثاني فأنجبت له الأمير مراد، وبذلك ارتقت إلى مرتبة "خاصكي" أي والدة الأمير.

وبمجرد أن أصبح سليم الثاني سلطان الدولة العثمانية أصبحت نوربانو هي المتحكمة الأساسية في العرش، وسيزل العجب حينما نعرف أن سليم الثاني أول سلطان عثماني يجلس في قصوره ويترك أمر الرعية وتأمين حدود بلاده، وهو ما دفع نوربانو إلى لعب دور أكبر فباتت هي المتحكمة في تعيينات القادة والصدر الأعظم، وأقامت تحالفات مع بعض آغاوات الحرملك.

وبتولي مراد الثالث الحكم (1574-1595) ميلادي، زاد تدخل نوربانو في شؤون الحكم بطريقة دفعت المؤرخين إلى تسمية فترة مراد الثالث بسلطنة النساء والحاشية، إذ انتقلت السلطة الحقيقية إلى الحرملك وتركزت في يد نوربانو.

ولم يسحب عرش السلطانة نوربانو إلا الجارية صوفيا بيلوجي التي وقع في غرامها مراد الثالث فأنجبت له ابنهما السلطان محمد، وبذلك الطريقة أصبحت تلك الجارية هي السلطانة صفية زوجة السلطان وأم ولي عهد.

لكن لم يكن الطريق مهيأً لصغية سلطان إذ إن والدة مراد الثالث نوربانو، كانت هي الأخرى ما تزال حاكمة لقصور الحكم، فأغرت ابنها بجوارى أخريات لإبعاده عن صفية؛ لكن السلطان مراد الثالث لم يستطع إذ وقع في غرام صفية.

وبين الزوجة وأم السلطان دارت معارك كثيرة سرية في قصر الحكم أثناء تولى مراد الثالث، لكن تمكنت صفية بتحالفات كثيرة مع آغاوات الحرملك أن تحسم الصراع لصالحها، ومهدت الطريق إلى تولى ابنها الحكم، فأثناء وجود مراد الثالث على فراش الموت أمرت صفية بقتل كافة أبنائها، الذين بلغ عددهم 18 ابناً يُطلق عليها بعد ذلك السفاحة.

استمر دور صفية سلطان بعد ذلك أثناء عهد ابنها محمد الثالث (1595-1603) ميلادي، بل تضخم لتصبح مسؤولة عن تعيينات الوزراء والولاة، ولم يُجد من سلطانها إلا وفاة ابنها محمد الثالث عام 1603 ميلادي.

امرأة تحكمت في ثلاثة سلاطين من الترك وخلال ما يقرب من أربعة عقود، هذا ما أدت إليه سياسة الدولة العثمانية التي ترك قاداتها الأمر في يد الجوارى، وهذا ما أنطبق على كوستم سلدان زوجة السلطان أحمد الأول (1603-1617) ميلادي، التي شاركت في كل شؤون الحكم خلال فترة زوجها وباتت أشهر سيدات الدولة العثمانية بسبب استمرار دورها وتعيينها القادة، والتحكم في حركة الترقيات خلال عهد ابنها مراد الرابع (1623-1640) ميلادي، ثم من خلال حفيدها محمد الرابع (1648-1687) ميلادي.

تلك السياسة العثمانية التي تركوا فيها الأمر للجوارى، كان لها أثرها المباشر على المسلمين وأحوال الرعية خلال عهد سلاطين الترك، فكما توضح المصادر التاريخية أنه في خلال الفترة الواقعة بين وفاة السلطان سليمان القانوني وتولية السلطان مصطفى الرابع العرش عام 1907 ميلادي، حكم ثمانية عشر سلطانًا، وهو عدد كبير تسببت فيه صراعات الحكم التي قادت الجوارى، وأدت إلى قتل عدد كبير من بني عثمان.

كما أنه بسبب تحكّم الجوارى في عرش الدولة العثمانية ظهر الفساد في الحكم، وزاد من وتيرته تحالفات بعض النسوة مع رجال في القصر، ولذلك لم يكن من الغريب أن الفترات التي شهدت بروز السيدات في الحكم كانت هي الفترات التي شهدت ضعف الدولة العثمانية، وزيادة النزعات الاستقلالية عنها بالإضافة إلى عدوان الدول الأجنبية الغربية عليها.

وفي النهاية لم يدفع ثمن ذلك إلا الأهالي الذين عانوا الفقر والجوع وعدم تأمين بلادهم، بسبب سلاطين جلسوا في قصورهم وتركوا الحكم لعبة بيد الجوارى.

تعاظّم دور الجاربات كان أبرز أسباب ضعف الدولة العثمانية وعدوان الغرب لها.

1) إلبير أورتاي، العثمانية آخر الإمبراطوريات، ترجمة: عبد القادر عبد اللي (بيروت: دار العربية للعلوم ناشرون 2015م).

2) خليل إيتاجلي، تاريخ الدولة العثمانية من التشوّء إلى الانحدار، ترجمة: محمد الأرنؤوط (بيروت: دار المدار الإسلامي، 2002م).

3) عبد الرحيم بنحادة، العثمانيون المؤسسات والاقتصاد والثقافة، (الدار البيضاء: اتصالات سيو، 2008م).

4) فريدون أمجان، سليمان القانوني سلطان البرين والبحرين حقائق في ضوء المصادر، ترجمة: جمال وفاروق وآخر (القاهرة: دار النيل للنشر والتوزيع، 2014م).

5) محمد أحمد الثقفي، زواج السلاطين العثمانيين من الأجنبيات وأثره على إضعاف الدولة (مكة المكرمة: رسالة ماجستير، قسم الدراسات التاريخية والحضارية العليا، جامعة أم القرى، 2012م).

6) محمد سهيل طقّوش، تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة، (بيروت: دار التفائس للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، 2008م).

7) منجم باشي أحمد دده، جامع الدول، تحقيق: غسان علي الرمال، (مكة المكرمة: رسالة دكتوراه، قسم الدراسات التاريخية والحضارية العليا، جامعة أم القرى، 1997م).

8) إسماعيل أحمد: الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث. مكتبة العبيكان. ص 93-94.

9) كمال الدين إحسان: الدولة العثمانية تاريخ وحضارة (صالح سعادوي). ج 1. 1999.

10) لويس، برنارد: استانبول وحضارة الخلافة الإسلامية. (سيد رضوان علي). (1982). ط2. الدار السعودية للنشر والتوزيع. ص 105.